

المجلد 09 / العدد 02 / ديسمبر (2025)، ص.ص. 451-463

محمد العيد آل خليفة واهتماماته القومية في شعره

Mohamed Laïd Al-Khalifa and Nationalist Concerns in His Poetry

أحمد قتي

ahmed_1966@hotmail.fr

جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة
(الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/09/15

تاريخ الاستلام: 2025/08/08

ملخص:

يعدّ محمد العيد آل خليفة من أبرز القامات الشعرية في الجزائر؛ حيث شكلت قصائده مرحلة تأسيسية في تاريخ الحركة الأدبية الجزائرية في القرن العشرين، وقد تميز منجزه الشعري بقدرته الفنية العالية على تجسيد معاناة الشعوب في مختلف أنحاء الوطن العربي، سعيًا منه إلى تعزيز الوعي القومي العربي لمواجهة التحديات التي تعترض مسار الأمة في بناء مستقبلها، وقد أصبح شاعرنا شاعرا قوميا، باشتغاله المتواصل على قضايا الأمة العربية في أبلغ الصور الأدبية؛ حيث استطاع الجمع بين جماليات التشكيل الفني في صياغة القصيدة العربية، والخوض في خطاب الفكر القومي، وكأنه قد استشعر القيمة الأدبية في توجيه الكفاءة اللغوية لممارسة شعرية القصيدة القومية، وبذلك استطاع خلق خصوصية الأسلوب الشعري في نظم القصيدة الوطنية.

وقد مارس الشاعر صنعة الشعر تعبيرا عن هموم الشعب وانشغالاته، ليضم صوته إلى صوت النضال والثورة على الأوضاع السائدة في زمانه، وعيا منه بقدااسة الواجب الاجتماعي للمثقف تجاه شعبه ووطنه، وبما أنه يملك سلاح الكلمة فإن من واجبه نشر الوعي، والأخذ بيد إخوانه الشعراء في سبيل تحرير الذات العربية من واقعها المرير، وقد كرس شعره خدمة لهذا المطلب، واستجابة لحاجات الأمة في إثبات وجودها وصنع مستقبلها.

كلمات مفتاحية: الحركة الأدبية، الوعي القومي، الكفاءة اللغوية، الأسلوب الشعري، الواجب الاجتماعي.

Abstract:

This paper examines the prominent Algerian poet Mohamed Laïd Al-Khalifa, whose work was foundational to the 20th-century Algerian literary movement. Al-Khalifa's poetry is distinguished by its profound artistic capability to articulate the suffering of people across the Arab world. His efforts aimed to foster Arab nationalist consciousness, enabling the nation to confront obstacles in its path toward future development.

Al-Khalifa emerged as a nationalist poet through his sustained engagement with Arab national issues, which he expressed with remarkable literary eloquence. He masterfully integrated aesthetic poetic construction with nationalist discourse. It's as if he inherently understood the literary value of directing linguistic proficiency toward the creation of nationalist poetry, thereby forging a distinctive poetic style in his national verses.

The poet wielded his craft to voice the anxieties and concerns of the populace, aligning himself with the struggle and revolution against the prevailing conditions of his era. This was driven by a keen awareness of the intellectual's

sacred social duty to their people and nation. Recognizing the power of the word, he embraced his responsibility to disseminate awareness and guide fellow poets in liberating the Arab self from its harsh reality. He dedicated his poetry to this cause, responding to the nation's imperatives for self-affirmation and future-making.

Keywords: Literary Movement, Nationalist Consciousness, Linguistic Proficiency, Poetic Style, Social Duty.

مقدمة:

الشعر في العصر الحديث أصبح وسيلة فنية تعبر عن مشاعر الشعوب وطموحاتها، وخاصة في ظل الاستعمار، حيث تأثر بالأفكار القومية وأصبح يعكس وعي الأمة وفضالها ضد الظلم والاستبداد. في هذا في السياق عد الشاعر محمد العيد آل خليفة من أبرز الأصوات القومية التي عبرت شعريا عن تطلمات الأمة نحو الحرية والاستقلال، خاصة مع استمرار الاحتلال الأجنبي، حيث لعب الشعر دورا محوريا في توحيد الشعوب العربية، وإثارة القضايا القومية الكبرى مثل القضية الفلسطينية، القضية المصرية، استقلال ليبيا، واستقلال السودان. لذا، تهدف هذه الدراسة إلى تحليل البعد القومي في شعر محمد العيد آل خليفة، من خلال ربط وعيه القومي بالسياق التاريخي والسياسي الذي عاشه، وإبراز دور شعره في التعبير عن قضايا الأمة والمساهمة في بناء خطاب قومي، يعكس تطلمات العرب للتحرر والوحدة. واعتمدت هذه الدراسة على المنهج التحليلي-التاريخي، نظرا لارتباط شعر محمد العيد آل خليفة العميق بالواقع السياسي والتاريخي، ولتحليل الأساليب الفنية التي استخدمها في التعبير عن هذا البعد القومي. تتأسس هذه الدراسة على تساؤل مركزي يتمثل في: كيف تجلت ملامح الوعي القومي في أشعار محمد العيد آل خليفة؟ وما الوسائل التي استخدمها للتعبير عن انشغاله بالقضايا العربية الكبرى في سياق التحولات السياسية والتاريخية التي مر بها العالم العربي؟

ماهية البعد القومي:

القومية في اللغة مشتقة من لفظة قوم التي تدل على جماعة من الناس، حيث جاء في لسان العرب "القوم الجماعة من الرجال والنساء جميعا وقيل هو للرجال خاصة دون النساء، وقوم كل رجل: شعبته وعشيرته".¹ وجاء في كتاب العين، القوم: الرجال دون النساء، قال الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ سورة الحجرات، الآية: 11 وقوم كل رجل: شعبته وعشيرته.²

البعد القومي هو اتجاه فكري وأدبي يعبر عن ارتباط الفرد أو الجماعة بهوية الأمة، ويجسد الشعور بالانتماء إلى كيان عربي واحد يجمعه التاريخ، واللغة، والثقافة، والمصير المشترك. وهو مفهوم ينبثق من الوعي القومي، الذي يرى أن وحدة الأمة وتحررها من التبعية السياسية والثقافية أمران جوهريان لبناء مستقبلها. ومفهومها العام هي "الانتماء إلى أمة معينة والتعلق بها، ومقوماتها، اللغة، الأرض، الأصل، والشعور بالانتماء"³

الأدب القومي يتسم بالتركيز على القضايا التي تمثل الشعب ككل، ويعتبر وسيلة للدفاع عن الهوية الوطنية والكتاب هنا ليس مجرد مبدع، بل هو مدافع عن ثقافة وأمة بأكملها وقضاياها مثل: الدعوة إلى الوحدة العربية، ومناهضة الاستعمار، والدفاع عن اللغة والهوية، ومناصرة القضايا المصرية كالقضية الفلسطينية، وغيرها من قضايا الأمة. ويتجلى هذا البعد من خلال المضمون والموقف، وأحيانا من خلال الشكل والأسلوب اللغوي والرمزي. وبالتالي تكمن مسؤولية الأديب في معالجة قضايا أمته والتعبير عنها والدفاع عن مصالحها ضمن إطار فكري وثقافي يعكس وعيه المجتمعي "وتعميق الإحساس لدى أبناء الأمة العربية بالانتماء إلى الأمة العربية الواحدة، ووعيتهم بمفهوم القومية العربية ومقوماتها، وتحريكهم بالعاطفة والوعي معا لترجمته في سلوكهم وممارستهم أعيانهم الهدف القومي الأكبر: تحقيق الوحدة العربية الشاملة".⁴

أسباب ظهور الوعي القومي:

كان للفكر العربي دور محوري في بناء القومية العربية عبر العصور، وأصبح يحمل وعيا قوميا متزايدا مع مرور الزمن حتى بلغ ذروته في عندما كان سببا في قيام الثورات والدعوة للتحرر. ولعل الأسباب التي أفضت إلى هذا الوعي يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- الاستبداد والاضطهاد العثماني التعامل العثماني للدول العربية كان سلبيا ترتب عنه بروز جمعيات ثقافية علميا وأديبا هادفة إلى ترسيخ الفكر الوطني والقومي، والدفاع المشروع عن الهوية العربية والحق في الحرية

2 تداعيات الحربين العالميتين : ساهمت الحربان العالميتان في بلورة الوعي السياسي والقومي لدى الأمة العربية، الأمر الذي أدى إلى تنامي روح المقاومة في مواجهة قوى الاستعمار. وقد شهدت المنطقة خلال تلك الفترة موجات متتالية من الحركات الثورية والاحتجاجات الشعبية، التي شكلت تعبيراً صريحا عن رفض واقع الاستبداد، ومحاولة جادة للتحرر من هيمنة القوى الاستعمارية الطامعة.

3 نكسة 1967: مثلت الهزيمة العسكرية الكبرى التي مني بها الوطن العربي نقطة تحول حاسمة في مسار الوعي القومي، إذ أدت إلى انتقال الخطاب القومي من مستوى التنظير الفكري المجرد إلى مجال الممارسة العملية. وقد ترتب على ذلك توجه متزايد نحو البحث عن حلول علمية وواقعية لحمل التحديات التي تواجه الأمة، بما يعكس تطورا نوعيا في فهم القضايا القومية والتعامل معها بمنهجية أكثر عقلانية وواقعية.

هذه العوامل مجتمعة شكلت الأساس لظهور الوعي القومي العربي، الذي ما لبث أن أطلق طاقات التغيير والتحرر، في سعي مستمر نحو الوحدة والكرامة.

تطور الوعي القومي في الأدب العربي الحديث، خصوصا في ظل الاحتلال الأجنبي:

شهد الأدب العربي الحديث تحولات عميقة في بنيته ومضامينه، وكان من أبرز هذه التحولات تنامي الوعي القومي، الذي تبلور تدريجياً كرد فعل على الهيمنة الاستعمارية التي فرضت وجودها على العديد من الأقطار العربية، فقد وظف الأدباء الأدب كأداة مؤثرة للتعبير عن مشاعرهم الوطنية، والدعوة إلى الحرية. فظهرت في أعمالهم الأدبية موضوعات تمجد الوطن، وتبرز الهوية الثقافية العربية، وتستدعي الرموز التاريخية التي تعكس روح الأمة وعراقتها.

كما أصبح الأدب وسيلة فعالة في مقاومة الاحتلال، يفضح جرائمه ويوقظ الوعي الجماعي، فيشعل الحماسة في نفوس الناس ويغذي فيهم روح النضال والتضحية. ومع تنامي حركات التحرر وانتشارها، شهد الوعي الجماهيري نقلة نوعية واتساعا متزايدا في الإدراك، ليصبح الأدب من مجرد تعبير ذاتي إلى أداة جماعية، تعكس قضايا الأمة وآمالها، وتتطلع للحرية.

عكس الشعر العربي في العصر الحديث درجة الوعي القومي في البلاد العربية الواقعة تحت الاستعمار، فقد انتقل الشعر من مدار الفخر الفردي والغزل التقليدي إلى ساحة تعبير جماعي عن الألم الوطني والطموح إلى التحرر، فغدا لسان حال الأمة وصوتها الصادح بالمقاومة والدعوة إلى الاستقلال.

في هذا السياق، برزت أسماء عدد من الشعراء الذين خصصوا قصائدهم لخدمة قضايا الأمة، فحولوا الشعر إلى سلاح فكري وثقافي لمحاربة المحتل، وأداة تشجذ الهمم. حيث امتزجت في نصوصهم مفردات الثورة، والحرية، والتضحية، وشهدت قصائدهم استحضارا لرموز تاريخية وشخصيات مقاومة، ساعين إلى إحياء الروح القومية وربط الحاضر بماض مجيد لصنع مستقبل تليد.

شهد الشكل الشعري فقرة كبيرة تجاوزت مع المرحلة الجديدة وما أفرزته من تحولات اجتماعية وسياسية، معتمدا على الخطاب المباشر، مستهدفا الجماهير العربية بصورة مقصودة اتسمت بالحماسة واستهدفت الجماهير بشكل واسع ومقصود. مساهما بذلك في تعزيز الجانب الفكري والثقافي في تأسيس حركات التحرر، وتفجير الثورات الوطنية.

يمكن القول إن الشعر القومي الحديث لم يكن مجرد تفاعل فني مع واقع الاحتلال، بل كان فعلا من أفعال المقاومة، حافظ على هوية الأمة، وأشعل جذوة الكرامة في نفوس أبنائها، ليظل شاهدا على مرحلة مفصلية في تاريخ العرب المعاصر.

أهمية الشعر كوسيلة للتعبير عن الروح القومية:

يعدّ الشعر وسيلة فعالة للتعبير عن الروح القومية، لما يمتاز به من لقدرته فنية والوجدانية على نقل مشاعر الانتماء والوحدة، وإحياء الرموز الثقافية والتاريخية التي تشكل الهوية الجمعية للأمة. فالشاعر، بحسه المرهف ووعيه العميق، يحول التجارب القومية إلى صور شعرية نابضة بالحياة، تلهب مشاعر الجماهير وتحفز وعيمهم بالواقع والمصير المشترك. لقد اضطلع الشعر إذا بدور محوري خلال مراحل النضال الوطني، إذ تجاوز وظيفته الجمالية ليتحوّل إلى أداة فعالة للمقاومة الثقافية في مواجهة الاستعمار وسياسات التهميش. فقد مثّل وسيلة صادقة للتعبير عن تطلعات الشعوب نحو الحرية والاستقلال، وساهم في بلورة الوعي الجماعي. ومن هذا المنطلق، لا يقتصر دور الشعر على تصوير الواقع القومي، بل يشارك في صناعته من خلال ترسيخ الهوية القومية وتعزيز الشعور بالانتماء الحضاري.

خلال فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر شهدت الجزائر عزلة شديدة عن محيطها العربي والإسلامي نتيجة السياسات الاستعمارية الفرنسية التي سعت إلى تدمير الهوية الثقافية والدينية للجزائريين، حتى تلك التي تجمعها بالشعوب العربية الأخرى. ولم تقتصر هذه العزلة على الجوانب الثقافية والدينية فقط، بل امتدت إلى الصعيد السياسي والاقتصادي، حيث كانت الجزائر معزولة عن أي دعم أو تواصل مع الدول العربية والإسلامية، وفرضت فرنسا قيودا شديدة على التنقل والتواصل بين الجزائر وبقية العالم العربي، مما ساهم في ضعف الروابط السياسية والاقتصادية.

على الرغم من العزلة القسرية التي فرضها الاستعمار الفرنسي على الجزائريين، فإنهم استطاعوا بكل وسيلة ممكنة أن يعبروا عن قضايا أمّتهم. من خلال المقاومة المسلحة والثقافية، والأدب والفن، وحتى في المحافل الدولية، كانت الجزائر تصرخ ضد الظلم والاحتلال. لذلك، يعدّ الشعب الجزائري مثالا حيا على قدرة الأفراد والمجتمعات على مقاومة الاستعمار، والتمسك بهويتهم وحقوقهم الوطنية رغم كل الصعاب". وقد كانت هناك نافذة صغيرة تتطلع منها الجزائر إلى الخارج ... لقد كان تطلعا نحو جهة واحدة معينة هي جهة الشرق العربي، وكان تعبيرا عن إحساس وجداني أخوي تثيره الروابط والمصالح والمصائر المشتركة⁵ لم يغفل الشعراء في الوطن العربي أي جانب من جوانب الواقع العربي إلا وتناولوه، معبرين عن مشاعرهم العميقة وتفاعلاتهم الوجدانية تجاه ما يدور في محيطهم. وقد كان للشعر دور محوري في هذا السياق، إذ شكّل وسيلة تعبيرية فعالة مكنت الشعراء من نقل معاناة الإنسان العربي، عبر لغة تتسم بالصدق والتأثير، لم تختل علاقة الجزائر بفلسطين في إطار التضامن السياسي فحسب بل كانت رابطة روحية وثورية متجذرة تتخطى حدود الجغرافيا والانتماء التقليدي. فالجزائري الذي عانى من ويلات الاستعمار، وجد في القضية الفلسطينية مرآة تعكس تجربته التاريخية، حيث شكلت فلسطين رمزا يجسد آلامه وآماله في آن واحد، وهو ما يدل على مدى عمق الارتباط الوجداني والمعنوي الذي يكتنه لها، فكما هو معروف، كانت الجزائر ولا تزال مع فلسطين، ظالمة أو مظلومة لا عن جهل بحقائق الأمور، بل عن إيمان عميق بأن الحق لا يقاس بالموازين الدولية، بل بصدق الانتماء ووضوح الموقف. هذا الشعر لم يكن مجرد كلمات، بل عقيدة راسخة تسري في دم كل جزائري حر، يرى في نصرة فلسطين واجبا تاريخيا وقوميا لا يسقط بالتقادم. فقد كانت الجزائر حتى قبل استقلالها، تنطق باسم فلسطين في المحافل الثورية، وتبث صوتها من بين ألقاض المعاناة، لتقول إن الأمة واحدة، وإن الجرح الفلسطيني هو جرح كل جزائري مؤمن بالحرية والعروبة، لذلك "لسنا بحاجة إلى أن نعدد الروابط التي تربط بين فلسطين والجزائر ... كما أننا لا نحتاج إلى أن نضرب أمثلة للمقارنة بين حالة الجزائر وحالة فلسطين"⁶

طلما كان الشعر الجزائري صوتا حرا ينبض بقضايا الأمة، ولم تغب فلسطين عن وجدان شعرائه يوما. فقد عبر الشعر الجزائري عن القضية الفلسطينية بروح ثورية صادقة، حيث التقت المعاناة المشتركة في كلمات الشعراء الذين رأوا في فلسطين امتدادا لمعركهم ضد الاستعمار، فهذا مفدي زكريا على سبيل المثال لا الحصر تغنى بفلسطين كما تغنى بالجزائر، متيقنا بأنه لا حرية حقيقية في ظل احتلال أو ظلم. وعلى هذا النهج سار الشعراء محمد الأخضر السائحي وأحمد سخنون وعز الدين ميهوبي وغيرهم، ولم يكن الشعر الجزائري يوما واقفا على الهامش أو مجرد وسيلة للتعبير، أو مجرد بكاء على الأطلال، بل كان أداة للمقاومة الثقافية، يعزز الوعي الشعبي ويحرك المشاعر الوطنية نحو نصرة فلسطين، ويؤكد على وحدة الدم والمصير. وهكذا ظل مرآة لصوت الأمة، يجسد التضامن، ويبقي القضية حية، عنوانا للكرامة، وراية لا تسقط.

محمد العيد آل خليفة واحد من الشعراء الذين تجاوزوا في اهتماماتهم حدود الشأن الوطني الجزائري، متنبيا القضايا العربية الأوسع، انطلاقا من قناعة راسخة بأن الانتماء الوطني لا يكتسب معناها الحقيقي إلا في إطار الانتماء القومي. حيث كتب الكثير من القصائد في الشأن العربي من بينها:

القضية الفلسطينية:

على الرغم من أن القضية الفلسطينية محورية للشعب الفلسطيني نفسه، فإنها كانت ولا تزال قضية جميع العرب حيث قدم الشعراء العرب من جميع الأقطار العربية العديد من الأعمال الشعرية الطويلة التي تعبر عن التزامهم العاطفي والسياسي بالقضية الفلسطينية. التي كانت تلهيهم وتوحدتهم، فعلى غرار شعراء مثلاً إبراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود، وسميح القاسم، وغيرهم، أصبحوا رموزاً فلسطينية وعربية. تعبيراتهم الشعرية كانت تنقل للمتلقي آلام الشعب الفلسطيني وتاريخه الممتد في الأرض، نجد أحمد شوقي وعبد محمود سامي البارودي، وحافظ إبراهيم وغيرهم من مصر، ومعروف الرصافي، وشفيق الكالي وغيرها من العراق، وبدوي الجبل من سوريا، ومحمد العيد آل خليفة، وأحمد سحنون، ومفدي زكريا، وغيرهم من الجزائر، كانت قصائدهم التي تحدثت عن فلسطين وما يحدث فيها تحمل طابعا قوميا.

هكذا أصبحت القصيدة الفلسطينية جزءاً أساسياً من الأدب العربي المعاصر، حيث أن التفاعل مع القضية الفلسطينية اتخذ بعداً شعريا فنياً يمكن تلمسه في العديد من القصائد. الشعراء من مختلف الدول العربية اهتموا بالمسألة الفلسطينية من خلال قصائدهم التي تجسد الصراع الفلسطيني الصهيوني

في سنة 1937، قام الشاعر بالقاء قصيدة تحت عنوان "استوح شعرك" تحمل نداء عاجلاً إلى الجزائر، يحث فيها الأمة الجزائرية على التعجيل بتقديم الدعم والمساندة لفلسطين، التي كانت تعاني تحت وطأة الاحتلال الصهيوني. تعكس هذه القصيدة عمق التضامن العربي مع القضية الفلسطينية، وتبرز أهمية الوحدة الوطنية والإقليمية في مواجهة العدوان والممارسات القمعية التي كان يتعرض لها الشعب الفلسطيني آنذاك. من خلال هذا الخطاب الشعري، دعا الشاعر إلى تحرك سريع وحاسم من قبل الجزائر، باعتبارها جزءاً من الأمة العربية، لتحرير فلسطين ودعم نضالها ضد الاحتلال، مؤكداً على الدور الحيوي الذي يمكن أن تلعبه الشعوب العربية في الدفاع عن حقوقها المشروعة، معبرا في الوقت ذاته عن شعوره العميق بالحزن والألم بسبب المعاناة التي تعيشها فلسطين، فكل قلب يشعر بهذا الأين والتفطر الداخلي الناتج عما يحدث في القدس وفلسطين. كما عبّر استيائه من المفاهيم التي تروج لها هيئات العدالة والسلام في العالم، حيث يرى أن هذه المبادئ لا تعني شيئاً عندما تكون مرتبطة بالقمع والمظالم التي يعاني منها الفلسطينيون، والمترتبة باسم هذا الشاعر المزيّف بشكل علني، وهو ينتقد الأشخاص الذين يتحدثون عن هذه المبادئ، بينما في الحقيقة يشاركون في الظلم والفقر قائلا:⁷

هلا أغثت القدس منك بلفتة	غيري على شعب هناك مروع
القبلة الأولى تضج وتشتكى	من قسمة المستأثر المستنفع
أي فلسطين الشقيقة لا تني	عن رد عدوان اليهود الأشنع
ويح القلوب فكل قلب شاعر	متقطع لأنينك المتقطع
ويح العدالة والسلام فلا أرى	غير العدالة والسلام بموجع
باسميهما تقع المظالم جهرة	من كل منتسب لأصلها دعي

بعد كتابة هذه القصيدة بعشر سنوات حصلت النكبة، وتوسع جرح فلسطين، وكانت لحظة فارقة في تاريخ العرب والفلسطينيين على حد سواء، تزايدت الآلام مع مرور الوقت وتوالى الخيبات. في هذا السياق رفع محمد العيد آل خليفة صوته عاليا، داعيا فلسطين إلى نبذ الخوف، وعدم الاهتمام بالتهديدات لأن الله يراقبها بعين الحماية والرعاية، وأنها ليست وحدها حيث يحيط بها جيش من (بني عدنان) وهم أحد قبائل العرب القديمة مستعد للقتال، وقوته عظيمة كما هو حال السباع، جيش قوي ومهيّب يستطيع اجتياح أي مكان بسهولة، مستعد لتقديم كل ما يملك من مال ودماء للدفاع عنها ضد أي اعتداءات أو غارات قائلا:⁸

فلسطين العزيزة لا تراعي	فعين الله راصدة تراعي
وحولك من بني عدنان جند	كثير العد يزأر كالسباع

إذا استصرخته للحرب لى
يجود بكل مرتخص و غالي
فلسطين العزيزة لا تخافي
بجيش مظلم كالليل غطى
وخف إليك من كل البقاء
ليدفع عنك غارات الضباع
فإن العرب هبوا للدفاع
حيالك كل سهل أو يفاع

خلاصة القول هي أن هذه الأبيات الشعرية أيضا تذهب إلى التفاؤل بالقوة والتلاحم العربي في مواجهة العدوان. وهي رسالة تشجيعية تؤكد أن الأمة العربية رغم التحديات والمشاكل التي قد تواجهها، قادرة على التوحد والتفاعل بشكل جماعي ضد أي تهديد خارجي. هذا التلاحم لا يقتصر على دعم فلسطين فحسب، بل يمتد ليشمل جميع القضايا التي تمس العالم العربي، مما يعزز الإيمان بأن الوحدة العربية، رغم ما قد يعيقها من اختلافات، قوة حقيقية يمكن أن تغير الواقع.

ثم يعري الشاعر محمد العيد اليهود ويفضحهم ساخرا ومقللا من نجاحاتهم وانتصاراتهم في المنطقة العربية أو الفلسطينية قائلا⁹:

وكيف يصادف العبرى نجحا
قد اشتهر اليهود بكل قطر
قد اغتر اليهود بما أصابوا
متى كان اليهود جنود حرب
وما أخلاقه غير الخداع
بأن طباعهم شر الطباع
بأرض القدس من بعض القلاع
وكفؤا للأعارب في الصراع

تدرج هذه الأبيات ضمن الشعر الحماسي المقاوم، وقد كتبت في سياق الصراع العربي الإسرائيلي، تحديدا عقب النكبة، حيث شكلت خسارة العرب أمام الاحتلال الإسرائيلي صدمة كبرى فجرت طاقات الشعراء للتعبير عن الغضب والرفض والمرارة. تعبر الأبيات عن موقف قومي يرفض الاعتراف بشرعية نجاح اليهود في احتلال فلسطين، وتصور هذا النجاح على أنه مؤقت ومبني على الخداع والغدر، لا على الشجاعة أو القيم النبيلة. من الناحية الدلالية، ينكر الشاعر على اليهود امتلاكهم صفات البطولة ويشكك في قدراتهم الحربية ونجاحاتهم الوهمية، ويؤكد أنهم لا يجيدون سوى الخداع، معززا ذلك بصور بلاغية قوية واستفهامات إنكارية. أما من الناحية الجمالية، فقد جاءت الأبيات على بحر الكامل، بواقفية موحدة، ولغة جيزة صارمة تعبر عن التحدي والرفض. إنها قصيدة تدرج ضمن أدب المقاومة، وتجسد حالة الرفض العربي للاحتلال.

زبدة القول هي أن محمد العيد آل خليفة، من أبرز الشعراء الذين عبّروا عن القضايا العربية بشكل عام، وركز في شعره بشكل خاص على القضية الفلسطينية. كانت فلسطين محورا رئيسيا في أعماله الشعرية، حيث أظهر معاناة الفلسطينيين، لكنه لم يقتصر على إظهار الألم فقط، بل قدم فلسطين كرمز للصمود والكرامة. شعره كان يعكس إحساسا عميقا بالمسؤولية الأخلاقية تجاه القضية، مُسلطا الضوء على أهمية الوحدة العربية والتضامن مع الشعب الفلسطيني. في قصائده، كانت فلسطين ليست مجرد أرض محتلة، بل رمزا للمقاومة والشرف، مما يجعل شعره حاليًا شاهداً على ما يحدث اليوم في فلسطين، حيث تبقى هذه القضية في قلب الأمة العربية، مستمرة في صراعها من أجل الحرية والكرامة.

القضية المصرية

في عام 1952، أُلغيت معاهدة عام 1936، التي كانت تمثل قيداً على السيادة المصرية، وهو ما أدى إلى تصعيد عنيف من قبل القوات البريطانية التي ارتكبت أحداثاً مؤلمة في مناطق القتال. وقد ردّت مصر على هذه الانتهاكات بإعلان الجهاد، مؤكدة عزمها على استعادة حقوقها بالقوة المسلحة. هذا الحدث ترك صدها العميق في أوساط الأمة العربية، لا سيما في الجزائر، حيث تفاعلت الحركة الوطنية الجزائرية، وخاصة النخبة المثقفة، مع النضال المصري باعتباره جزءاً من النضال العربي المشترك ضد الاستعمار. وقد عبّر الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة عن هذا التفاعل بقصيدة مطولة نشرت في جريدة البصائر، العدد 179، سنة 1952، دعا فيها إلى الجهاد والعمل المسلح، مستنهماً هم الشعوب العربية ومجسداً وحدة الكفاح التحرري بين مصر والجزائر. هذه مقتطفات منها:¹⁰.

أغار علي، الكنانة شر عاد
أعدي كل بأسك واستعدي
فقل يا مصر حي على الجهاد
لرد الزاحفين بلا اتئاد

جنوا باسم الحماية منك حينما مجاني، زودتهم خير زاد
وكنيت لجيشهم في الحرب حصنا تحطم عنده زحف الأعادي

الآيات تعبر عن الحماسة الوطنية والدعوة للجهاد في سبيل الدفاع عن الوطن. يظهر الشاعر غيخته على مصر ويبحث على الاستعداد التام للملاقاة الأعداء وردهم بكل قوة وحزم. كما يشير إلى الدعم الذي قدمه الوطن للجنود في أوقات الحرب، مبرزاً دور الجيش في التصدي للعدوان وحمايته للبلاد من الخطر.

الجمال الشعري في النص يظهر في استخدام الصور البلاغية التي تعزز من قوة النص، مثل الاستعارة "كنيت لجيشهم في الحرب حصناً". كما أن النص يعتمد على التكرار والإيقاع، مما يضيف للرسالة عاطفة وحاسة. ومن الناحية الدلالية، النص يحمل رسالة قوية عن حب الوطن والدعوة إلى الجهاد والدفاع عن الأرض. يعكس مفاهيم التضحية والفداء، كما يحفز على الاستعداد للقتال والتضحية، ويعكس القوة الداخلية للجيش والشعب في مواجهة الأعداء. ثم يقول داعياً المصريين إلى شن حرب تسطر بدماء الأبطال، لا بالحر، وتكتب مجنود زاحفة لا بكلمات في كتب، فهي سجل من الفداء والتضحية، لا من السطور والعبارات. ويظهر في البيتين تصوير بلاغي قوي، حيث يتحول ميدان الحرب إلى صحيفة تكتب بالجيوش والدم، وليس بالقلم والممداد.¹¹

فشنيها عليهم حرب ثأر وشبها لضي ذات انتقاد
وخطيها ككتائب غير كتب وصحفا من دم لا من مداد

وهذا سبيل جميع الشعراء الجزائريين في تعاملهم مع الاستعمار الفرنسي أمثال الأمير عبد القادر وأحمد سحنون وأحمد رضا حوحو وأبي القاسم سعد الله، حيث يقول م فدى زكريا:¹²

نحن جند، في سبيل الحق ثرنا والي، استقلالنا، بالحرب قمنا
لم يكن يصغي، لنا لما نطقنا فاتخذنا رنة البارود وزنا
وعزفنا نغمة الرشاش لحنا وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

يتضح من خلال النص أن الثوار اعتمدوا بشكل كبير على القوة المسلحة والجهاد كوسيلة لتحرير الجزائر من الاستعمار ولم يكن لديهم خيار سوى الحرب بعد أن تم تجاهل مطالبهم السلمية، حيث تم تصوير الأسلحة كأدوات حيوية في معركة الاستقلال.

إن الشعراء رغم اختلاف أساليبهم وتنوع مدارسهم، تجمعهم رابطة خفية تتجاوز الكلمات، هي رابطة الإحساس العميق بالكلمة، والمعاناة الصادقة، والرؤية الفريدة للحياة. وبينهم غالباً ما تتشكل علاقة احترام وتقدير، مبنية على إدراك كل منهم لقيمة الآخر الإبداعية، ولجهده في التعبير عن مشاعر الناس وأحلامهم وآلامهم. ففي عالم الشعر، لا ينظر الشاعر إلى زميله كمنافس، بل كمرآة تعكس أبعاداً أخرى للغة والخيال، وكأن كل واحد يكمل الآخر بطريقة أو بأخرى. يتأثرون ببعضهم، يتحاورون ويستلهمون من قصائد بعضهم طرقاً جديدة للتعبير والرؤية. وعند وفاة أحد الشعراء، لا يكون الحزن عادياً. فهو ليس مجرد فقدان صديق أو زميل، بل هو غياب صوت كان ينطق عن أرواح كثيرة. يشعر الشعراء بأن العالم فقد جزءاً من روحه، وأن الساحة الأدبية أصبحت أكثر صمتاً. فيرثونه بقصائد دامعة، تحمل بين سطورها تقديراً عميقاً وحزناً صادقا، وكأن الكلمة هي وسيلتهم الأخيرة لوداع من لطالما عاش بالكلمة.

بعد محمد العيد من أولئك الشعراء الذين وعوا قيمة الكلمة ووفار حاملها، وكان شديد التأثير برحيل أعلام البلاغة وفصحائها، إذ كان يرى في غيابهم خسارة جسيمة للفكر والبيان والأمة، وخلافاً في ميزان اللغة التي طالما خدموها بصدق وإبداع. ففي شهر جانفي 1933 كتب قصيدة رثائية مؤثرة تعبر عن الحزن العميق لغياب أمير الشعراء أحمد شوقي، وتصف حال الشعر العربي بعد وفاته بأسلوب عاطفي، رفيع. نشرها بمجلة الشهاب في جزئها الأول قائلا:¹³

فقد الشعر من الشرق شمساً لم يزل منها على الشرق نور
فقد الشعر من الشرق سرحاً طالما غنت عليه الطيور
أين شوقي أين منه طروس من قوافي حكمة وسطور
أين شوقي أين منه خيالي سبق الأرياح حين يثور
نصرة من جنة الشرق ولت وتلتها ذبلة وضمور

أيما الشرق اعتصم بالتعزى فالتعزى عصمة وبرور
كتب الموت على كل نفس والى الله تسير الأمور

يبكى محمد العيد آل خليفة أحمد شوقي، ذلك النور الذى أضاء سماء الأدب فى المشرق. تبدو الدنيا مضطربة، كأنها تدور فى دوامة من الحزن، وقد انكفأ الشعر على نفسه حسرة ووحشة. لقد غابت الشمس التى كانت تشرق بالفكر، وتوارت تلك الروح التى كانت تسبق الرياح خيالا وثورة. يسأل الشاعر بأسى: أين شوقي؟ أين قوافيه، حكمته، وبيانه الذى كان يسكب الحياة فى الطروس؟ وقد تحولت الجنان التى كان يرومها شعره إلى أرض ذابلة لا طير يغنى فيها. وبرغم الحزن، يخاطب الشاعر الشرق داعيا إياه إلى الصبر والتعزى، فكل نفس ذائقة الموت، وإلى الله تصير الأمور. إنها لحظة وداع للخلود، ووقفه تأمل فى هشاشة المجد أمام قدر الموت.

فى سياق آخر تعظم الفاجعة فى نفس محمد العيد بعد أن غيب الموت الشاعر حافظ إبراهيم بوصفه نموذجا من نماذج التقدير المتبادل بين أعلام الأدب العربى فى العصر الحديث. فقد وجد فى وفاة هذا الشاعر المعروف بلقب "شاعر النيل"، مناسبة لا ليستعرض مكانته كشاعر قومى مدافع عن قضايا أمته، بل ليظهر حزنه الصادق لفقدان قامة أدبية كان لها بالغ الأثر فى إحياء الروح العربية والإسلامية. فجاء رثاؤه مشحونا بالعاطفة، جامعا بين المدح، والأسى، والاعتراف بالفضل، فى قصيدة تجسد صلة الأدباء العرب وتضامنهم العابر للحدود. حيث يقول:¹⁴

قم عز مصر وعز الشرق أقطارا ففحل مصر خبا كالنجم وأنهارا
خطب جرى فى ضفاف النيل زلزلة وثار ملء جواء الشرق اعصارا
وطار كالبرق ينعي، شاعرا لبقا إلى أقاليم فيها صيته طارا
وابن الجزائر بابن الشرق مرتبط وان أحاطت به الأشواك أسوارا
يا رحمة الله هبى، نفحة وهمى غيثا على حافظ فى القبر مدرارا
فى ذمة الله لا أنساه ثانية حسبي بحبي له عهدا وتذكارا

بين الشاعر بأن وفاة حافظ إبراهيم مصيبة كبيرة لمصر وللشرق كله، فقد خبا نجم عظيم من نجوم الشعر ورحيله كان زلزالا هز ضفاف النيل، وأثار حزنا عظيما اجتاح الشرق كله، وانتشر سريعا كالبرق، حاملا نعي شاعر مشهور وفصيح إلى كل الأقاليم. ويؤكد محمد العيد بأنه يشعر بارتباط عميق بحافظ إبراهيم رغم الحصار الاستعماري الذى يحيط ببلده، ولن ينساه أبدا، وسيبقى حبه له عهدا دائما وتذكارا خالدا. ويدعو الله له بأن ينزل رحمته وغيثه على قبره، ويغمره بالرحمة والبركة.

استقلال ليبيا:

الاستقلال يعنى التحرر من السيطرة والاستعمار بكل أشكاله، وينتج عنه اتخاذ الدول المستعمرة لقراراتها الداخلية والخارجية بكل حرية فى جميع المجالات، ولا يأتي إلا عن طريق الكفاح المسلح والمقاومة المستميتة، وهو حدث تاريخي تتفاعل معه الأمة بمشاعر الفرح والغبطة والفخر والاعتزاز والأمل والتطلع للمستقبل الأفضل، والتفكير فى بناء دولة جديدة تحقق التنمية والازدهار، ويعد استقلال دولة ليبيا حدثا استثنائيا ومفصليا فى منطقة شمال إفريقيا، باعتبارها أول دولة عربية تنال استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية. جاء هذا الاستقلال نتوجيا لنضال ساخن وطويل الأمد طويل خاضه الشعب الليبي ضد الاستعمار الإيطالي، ثم الهيمنة البريطانية والفرنسية التى أعقبت الحرب. وقد تميزت تجربة الاستقلال الليبي بخصوصية تاريخية، كونها جمعت بين الإرادة الشعبية والدعم الدولي فى إطار قرارات الأمم المتحدة. ويمثل هذا الحدث نقطة انطلاق لبناء الدولة الليبية الحديثة، وإعادة تشكيل هويتها الوطنية والسياسية بعد عقود من الاحتلال.

لم يترك محمد العيد آل خليفة هذه المناسبة السعيدة تمر مرور الكرام حيث تفاعل معها بروح مليئة بالفرح والتضامن العربي. فقد اعتبر أن استقلال ليبيا يمثل بداية مرحلة جديدة نحو استقلال بقية الدول العربية، وبعد خطوة محورية نحو تحقيق حلم الأمة العربية والإسلامية فى التحرر الكامل. ففي عام 1952، واحتفاء بهذه المناسبة العظيمة، قام محمد العيد بنظم قصيدة نشرها فى جريدة البصائر فى عددها 183، مجسدا فيها مشاعر الفرح والاعتزاز بالحرية. وتطرفت القصيدة

إلى تمجيد نضال الشعب الليبي وجهادهم من أجل تحطيم قيود الاحتلال الإيطالي، معتبرا إياها إنجازا تاريخيا لا يمحي في ذاكرة الأمة العربية، قال في مطلعها:¹⁵

أمل تحقق بعد طول نضال	ومثال موز كان خير مثال
وأريكة أزرّت بكل أريكة	رجحان مرتبة وعز منال
وغنيمة للصابرين عظيمة	بالعز كافلة وبالإقبال
أرأيت أعظم غبطة من أمة	مهضومة حظيت بالاستقلال
اليوم أمة ليبيا قد حطمت	ما أحكم الطليان من أغلال

تعبر الأبيات عن فرحة الأمة الليبية بتحقيق استقلالها بعد سنوات طويلة من النضال ضد الاستعمار الإيطالي، حيث يصور الشاعر هذا النصر كأمل طال انتظاره وغنيمة عظيمة نالها الصابرون. ويبرز تفوق هذا الإنجاز على كل أشكال المجد السابقة، مشبها الاستقلال بـ"أريكة" فاقت كل مظاهر السلطة السابقة رفعة وعزا. كما يظهر الفخر الجماعي بتحطيم الأغلال التي كبل بها الاحتلال البلاد، مشيراً إلى أن ما كان محكماً ومتيناً من قيود الاستعمار قد سقط أمام عزيمة الأمة.

من الناحية الجمالية، يستخدم الشاعر أساليب بلاغية مثل التكرار، المقابلة، والتشبيه لخلق صور شعرية مؤثرة، مما يعزز من تأثير النص العاطفي. أما دلالياً، يبرز النص فكرة النصر الذي تحقق بفضل الصبر والمثابرة، ويصور التحرر من الأغلال كغنيمة عظيمة للصابرين. كما يشير إلى الوحدة الوطنية التي تحققت بعد معاناة طويلة، ليعكس لحظة تاريخية فارقة في مسار الأمة الليبية نحو الاستقلال والحرية.

في سياق الحديث عن الاستقلال والحرية، لا يمكن تجاوز دور الأبطال الذين تمخّذوا الطريق بدمائهم وتضحياتهم، وفي طليعتهم الشهداء الذين سخطوا ببطولاتهم أروع صفحات المجد. إن الشهيد ليس مجرد فرد رحل، بل هو رمز للفداء، وقيمة متجذرة في وجدان الأمة، يلهم الأجيال ويُجسد أسمى معاني التضحية والعطاء. والإعجاب بالشهداء ليس موقفاً عاطفياً فحسب، بل هو اعتراف بجسارة اختاروا بها الموت من أجل أن تحيا الأوطان. ومن هنا، فإن الحديث عن الشهيد في ديوان محمد العيد آل خليفة هو حديث عن الشرف، والبطولة، والخلود في ذاكرة الوطن، حيث يقول في استشهد البطل عمر المختار:¹⁶

ومضى بهم عمر الشهيد يقودهم	للحرب ينأى نأمة الرئبال
خاض الجهد مضفراً حتى انجلى	عما انجلى والحرب ذو سجال
لقي الشهادة فيه شنقا مرهقا	تحت الأسنة موثقاً بحبال
كتب الإله له الشهادة مرة	ليفوز منه بطعمها العسال
ويكون حيا غير ميت عنده	جدلان يرزق أطيب الأكال
في كل قلب مؤمن ذكرى له	أبدية قرنت بكل جلال

الأبيات تتحدث عن شهيد قضى في معركة بطولية، حيث خاض الحرب بشجاعة كبيرة وهو متقدم في السن حتى نال الشهادة، التي وصفها محمد العيد آل خليفة بأنها فوز عظيم من الله - عز وجل -، فالشهداء لا يموتون بل يعيشون حياة خالدة في الجنة، حيث يرزقون فرحين بما آتاهم الله بالطعام الطيب والراحة الأبدية. يظل الشهيد حيا في قلوب المؤمنين الصادقين، وذكره باقية إلى الأبد بكل فخر واعتزاز وجلال ثم يتحدث في بقية القصيدة عن الذين تسببوا في موته، حيث ذكر بأنهم يقعون في الخزي والعار على مر الأجيال، حيث ستظل سمعتهم مشوهة ويذكرون بالذل والعار.

في هذه الأبيات تتجلى جمالية شعرية راقية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بروح الشهيد ومكانته الخالدة، حيث يمزج الشاعر بين قوة الصورة البيانية وسمو المعنى الديني والوطني. تبدأ الأبيات بتصوير الشهيد في هيئة البطل المقدم، الذي يقود قومه في الحرب بثقة الأسد النائم "نأمة الرئبال"، وهي استعارة قوية تجمع بين الطمأنينة والقوة الكامنة. ويبرز الشاعر الجانب الملحي في بطولته، إذ خاض غمار الحرب مظفراً، رغم صعوبة المعركة وسجالها، حتى بلغ الشهادة، حيث يصور مشهده الأخير مشدوداً بالحبال وتحت الأسنة، وهو تصوير درامي يضفي قدسية على لحظة الاستشهاد.

ثم يبين الشاعر الجمال الإيماني في مصير الشهيد، الذي فاز بنصيب من الشهادة كتب له من عند الله، وجاء طعمها كالعسل - وهو تعبير قرآني يوحي بجلاوة الشهادة رغم مرارة الألم. يتابع الشاعر في وصف الشهيد حيا عند ربه، مرزوقا، جذلان (فرحا)، مما يعكس النقاء الجمال الروحي بالعميقة. كما يخلد ذكره في قلوب المؤمنين مقرونة بالجلال والسمو، ليؤكد أن الشهداء لا يموتون في وجدان الأمة. وفي مقابل هذه الصورة السامية، يرسم الشاعر جانبا جاليا مضادا قائما على التحقير، حين يصف أعداء الشهيد بأنهم نالوا الحزى الأبدي، وتعثرت خطاهم في الذل والانحدار الأخلاقي.

الجمال في هذه الأبيات لا يكمن فقط في الصور البلاغية كالتشبيهات والاستعارات، بل أيضا في التوازن الدقيق بين البطولة الفردية والخلود الجماعي، بين الألم والجلال، وبين النصر السامي والهزيمة الدنيوية لأعداء الشهداء، مما يجعلها قصيدة تمجد الشهيد بلسان الفن والوجدان والعميقة.

استقلال السودان:

بعد استقلال السودان محطة مفصلية في تاريخ الأمة العربية والأفريقية، إذ مثل ثمرة نضال طويل خاضه الشعب السوداني ضد الاستعمار البريطاني، وقد جاء هذا الحدث تنويجا لتطلعات السودانيين في الحرية وتقرير المصير، في ظل تنامي الوعي الوطني والقومي في منتصف القرن العشرين. وبشكل استقلال السودان نموذجا مهما لفهم ديناميات التحرر الوطني في المنطقة، خاصة في سياق تصاعد الحركات المناهضة للاستعمار آنذاك.

في سنة 1956، وبالتحديد في العدد 355 من جريدة "البصائر"، نشر الشاعر محمد العيد آل خليفة قصيدته التي عبر فيها عن فرحته وتقديره ومباركته لحدث استقلال السودان عن المستعمر الإنجليزي واعتباره خطوة مهمة نحو تعزيز الهوية الوطنية والسيادة العربية. يقول في مطلع هذه القصيدة:¹⁷

فوز سرت بحديثه الركبان فالشرق مغتبط به جذلان
والنيل يجري صاحباً ومصفقاً طرباً فترقص حوله الشيطان
وبنو العروبة يهتفون لمركب فى النيل أبجر ركبه العريان
ما أسعد السودان باستقلاله فالיום يرفع رأسه السودان

تجسد الأبيات مشاعر الفخر والفرح بانتصار السودان ونبهه الاستقلال، وهو فوز لم يفرح به السودان وحده، بل سرت أنباؤه في الآفاق حتى غدت الركبان تتناقله، وعمت البهجة أرجاء الشرق العربي، الذي بدأ "مغتبظاً جذلان"، أي سعيداً منتشياً. ويصور الشاعر الطبيعة ذاتها وكأنها تشارك في الاحتفال؛ فالنيل يجري مهللاً، محدثاً صوتاً يشبه التصفيق، وترقص الشيطان من حوله، في مشهد حي يعكس الفرح الجماعي. ويمتد هذا الشعور إلى "بنو العروبة"، حيث يهتف العرب في أنحاء الأمة بمركب الحرية الذي أبجر في النيل، رمزاً للانطلاق العرب نحو الاستقلال والتحرر. ويختتم الشاعر بإعلان بهيج: "ما أسعد السودان باستقلاله"، تعبير عن الفرح والابتهاج بمناسبة الاستقلال، حيث يعبر عن سعادة الشعب السوداني بعد نيلهم الحرية والقرار الذاتي، وتحررهم من الاستعمار، مشيراً إلى أن لحظة الاستقلال هي لحظة رفع للرأس عاليا دلالة على الكبرياء والعزة والكرامة بين الأمم، مما يعني أن اليوم الذي نال فيه السودان استقلاله هو يوم تفتخر فيه البلاد بتاريخها وحاضرها. ويزخر النص برموز دالة على القومية مثل الركبان الدالة على سرعة انتشار خبر الاستقلال، و "بنو العروبة" و "العربان" التي تشير إلى وحدة عربية وفخر قومي، ويرفع رأسه السودان تعبير عن الكرامة بعد الاستقلال.

في سياق هذه اللحظة الحاسمة التي تقتضي تعزيز قوة الوحدة، سلط محمد العيد الضوء على أهمية الحفاظ على الوحدة الوطنية والعمل التعاوني في مواجهة التحديات المستقبلية. وقد دعا إلى ضرورة تجنب الانقسامات وتجنب أي عوامل من شأنها تهديد اللحمة الوطنية. كما أكد على ضرورة تكاتف الجهود وتعزيز روح الأخي بين جميع أفراد المجتمع بغض النظر عن خلفياتهم الثقافية أو الاجتماعية. وفي هذا الصدد، شدد على أن الوحدة الوطنية تعد العنصر الأساسي في ضمان الاستقرار والتقدم، وأن تكامل الجهود الفردية والجماعية يمثل السبيل الأنجع لمواجهة ما قد يطرأ من صعوبات. قال محمد العيد:¹⁸

يا أمة السودان دولتكم رست طبتم وطاب لكم بها السلطان

ضمت لجامعة لنا عربية
لا تنقصوها بالخلاف فإنه
فعن الشقاق تزدهوا وتمسكوا
بعرى الوفاق فكلكم إخوان

تعبّر هذه الأبيات عن دعوة قوية للوحدة الوطنية والتمسك بالقيم التي تضمن استقرار الأمة وتماسكها. حيث يوجه الشاعر خطابه إلى الأمة السودانية أو العربية، مُشيداً بما تحقّق من استقرار سياسي واجتماعي في بلادهم، حيث يرى أن الدولة قد استقرت، ونالت نعمة الرخاء والسلطة الحكيمة، ثم يشير إلى مفهوم "الجامعة العربية" ككيان يعكس وحدة الهوية والمصير بين الأقطار العربية، ويؤكد على أن هذه الوحدة لا تقوم إلا إذا ظل الأعضاء مخلصين لهذه الهوية المشتركة، محذراً من أن الخلافات والصراعات الداخلية تؤدي إلى هدم البناء الاجتماعي والسياسي، مشدداً على أن الوحدة لا يمكن أن تستقيم إلا إذا تم تجنب الشقاق والتمسك بالوفاق. وفي النهاية يدعو الشاعر الأمة إلى التحلي بروح التسامح والتفاهم، ويشدد على أن الوحدة والاتفاق هما السبيل لتحقيق المصلحة العامة، حيث يُبرز مفهوم الأخوة بين أبناء الأمة كقيمة أساسية يجب الحفاظ عليها.

وظف الشاعر هنا أسلوباً بلغياً في التعبير عن النداء والتوجيه، إذ يبرز الفكرة عبر صور شعرية مؤثرة مثل "عرى الوفاق" التي تعكس تمسكاً عميقاً بالروابط الأخوية، ويصف الخلافات بأنها "شقاق" يقصد البناء، مُشيداً بتماسك الأمة بالبنين المتين الذي لا يستقيم إلا بالتفاهم والاتحاد. والجمال اللغوي يتجسد في تنسيق الألفاظ واختيارها بعناية لتوصيل رسالة قوية عن الوحدة والوفاق.

في سياق آخر يقول محمد العيد آل خليفة معبراً عن فرحه ومتسائلاً:¹⁹

من مبلغ السودان عنا أننا
نتبادل القبلات باستقلاله
متسائلين عن (الجزائر) هل دنا
ومتى تقرر كالشعوب مصيرها
ومتى يكف عن الخصومة خصمها
ومتى تفوز بنعمة استقلالها

تجسد الأبيات مشاعر التضامن العربي والوجدان الجمعي، حيث يعبر الشاعر عن مشاركة الشعوب العربي عامة والجزائري خاصة فرحة السودان باستقلاله رغم ما يعتريها من أحزان، خصوصاً تجاه مأساة الجزائر المستعمرة وتتجلى في النص مفارقة شعرية بين الفرح والحزن، تعبر عن وحدة الشعور القومي. كما يبرز الشاعر الإحساس بالمسؤولية الجماعية، متسائلاً عن مصير الجزائر ومؤمناً بحققها في التحرر، ومؤكداً على ضرورة استئثار اللحظة التاريخية وعدم تأجيل تقرير المصير. وتتضمن الأبيات نداءً ضمنياً إلى المستعمر للكف عن العنف، مع إدانة واضحة للاحتلال عن ظلمه وجبروته وخصومته، وإشادة مستترة بالمقاومة الجزائرية التي لا تزال تناضل لنيل حقها المشروع في الاستقلال، شأنها شأن سائر الأوطان العربية التي تحررت.

في الجانب الجمالي يبرز في الأبيات صدق العاطفة وحرارتها من خلال التعبير عن فرحة الشاعر العميقة باستقلال السودان، التي تتقاطع مع حزنه الممزوج بالترقب لمصير الجزائر، مما يمنح النص طابعاً إنسانياً وقومياً في آن واحد. ويظهر أيضاً بوضوح مبدأ الوحدة الشعرية بين الشعوب العربية، حيث لا يقتصر الشاعر على الاحتفال بمحدث وطني يخص السودان، بل يربطه مباشرة بقضية عربية أخرى، هي الجزائر، في تجلٍّ واضح للتلاحم الوجداني والمصير المشترك بين الأقطار العربية. ويتجلى ذلك في تركيب بلاغي مؤثر مثل قوله "فرحاً وإن طافت بنا الأحزان"، الذي يعبر عن مفارقة شعرية دقيقة، تصور ازدواجية الشعور بين الفرح والحزن، مما يعكس عمق التجربة الإنسانية التي ينقلها الشاعر، ويكسب النص بعداً وجدانياً وجمالياً مؤثراً.

يتجلى الجانب البلاغي في النص من خلال استخدام الشاعر لأساليب فنية تعمق المعنى وتثري البنية الجمالية. في الصور البلاغية، يبرز التشبيه والمجاز، كما في قوله: "نتبادل القبلات باستقلاله"، حيث يستخدم استعارة تصويرية تجسّد فرحة الشعوب العربية وكأنها لقاء حميمي، ما يعبر عن وحدة المصير والالتقاء المشترك. كذلك، تُصور عبارة

"يطوف بنا الحزن" الحزن وكأنه كائن حي يتجول بين الناس، في تجسيد فني للمشاعر. أما الاستفهام البلاغي، كما في "هل دنا تحريرها؟" و"متى تفوز بنعمة استقلالها؟"، فهو ليس استفهاماً حقيقياً، بل أسلوب للتشويق والإثارة، يعكس القلق والأمل ويعزز الجانب الوجداني للنص. ويعتمد الشاعر أيضاً على المقابلة والمفارقة، كما في قوله: "فرحاً وإن طافت بنا الأحزان"، التي تبرز التناقض الظاهري بين الفرح والحزن في إطار شعوري موحد، ويكتمل البعد البلاغي بالإيقاع الموسيقي المنتظم، إذ كتبت الأبيات على بحر الوافر، المعروف بإيقاعه القوي، ما يُضفي على النص إيقاعاً سمعياً متناعماً يتناسب مع الطابع الحماسي والنضالي للقصيدة.

نتوصل من خلال دراسة أعمال محمد العيد آل خليفة أن شعره يعد أحد أبرز تجليات الفكر القومي العربي في الأدب الحديث، إذ جسد من خلاله رؤيته العميقة للأمة العربية وأبرز قضاياها الكبرى. لقد استطاع أن يعبر عن القيم الوطنية والقومية بكل صدق وشفافية، مُستفيداً من قدرة الشعر على تحفيز مشاعر الالتئام والوعي القومي لدى الأفراد، وهو ما جعله يُسهم في نشر الفكر الوطني بين صفوف أبناء الأمة العربية. لم يكن محمد العيد آل خليفة مجرد شاعر يعبر عن قضايا وطنية تقليدية فحسب، بل كان رائداً في تحريك الضائر، وصوتاً داعياً إلى وحدة الأمة العربية ونهضتها.

من خلال قصائده، كان يشدد على ضرورة التماسك العربي في مواجهة التحديات والمخاطر الخارجية التي تهدد الاستقرار السياسي والاجتماعي في المنطقة. بل ويمكن القول إن شعره لم يقتصر فقط على التعبير عن القيم الوطنية، بل كان في جوهره دعوة مستمرة للوحدة العربية السياسية والاجتماعية، حيث آمن أن قوة الأمة لا تتحقق إلا من خلال وحدة الصف العربي وتعزيز التعاون بين دوله.

إضافة إلى ذلك، لم يكن شعره منفصلاً عن هموم الشارع العربي وهموم الشعوب المستضعفة بشكل عام، بل كان انعكاساً لصوت المقاومة والنضال ضد الاستعمار والاستغلال، مؤكداً على أهمية الدفاع عن الحقوق الإنسانية ورفض أي شكل من أشكال التفرقة أو الاستبداد. كان شعره صوتاً عالياً ضد الظلم، ومعبراً عن أمل العرب في التحرر من قيود الاستعمار الغربي والأنظمة القمعية، ليكون بذلك شعراً وطنياً، قومياً وإنسانياً في آن واحد. لقد أسهم محمد العيد آل خليفة بذلك في تعزيز الوعي القومي العربي، ونقل قضايا الأمة إلى مستوى الشعور الجمعي، وكان شعره حافزاً لتحفيز الأجيال الجديدة على الإيمان بقوة الأمة وإمكانية تحقيق طموحاتها، بغض النظر عن التحديات التي كانت ولا تزال تواجهها.

الهوامش:

- 1 - ابن منظور، لسان العرب، مج7، تح عمر أحمد الحيدري، مراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2005، ص: 264.263.
- 2 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج3، تح: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص: 444.
- 3 - محمد بوزواوي قاموس مصطلحات الأدب، دار مدني، 2003، ص: 2017.
- 4 - مصطفى عبد الغني، الاتجاه القومي في الرواية، سلسلة عالم المعرفة، عدد188، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1994، ص: 15.
- 5 - أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب العربي الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007، ص: 107.
- 6 - عبد الله الركيبي، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص: 41.
- 7 - محمد العيد آل خليفة، ديوان محمد العيد آل خليفة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2010، ص: 138.
- 8 - المصدر نفسه، ص: 303.
- 9 - المصدر نفسه، ص: 303.
- 10 - المصدر نفسه، ص: 311.
- 11 - المصدر نفسه، ص: 311.
- 12 - مفدى زكريا، الله المقدس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغبة، الجزائر، 2007، ص: 61.
- 13 - المصدر نفسه، ص: 315.314.
- 14 - المصدر نفسه، ص: 412.411.
- 15 - المصدر نفسه، ص: 315.
- 16 - المصدر نفسه، ص: 315.
- 17 - المصدر نفسه، ص: 221.

18. المصدر نفسه، ص: 223.

19. المصدر نفسه، ص: 223.

المصادر والمراجع

1. الخليل بن أحمد الفراهدي، كتاب العين، ج3، تخ: عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003.
2. عبد الله الركيبي، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983 .
3. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب العربي الحديث، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007 .
4. محمد بوزواوي: قاموس مصطلحات الأدب، دار مدني، 2003.
5. محمد العيد آل خليفة، ديوان محمد العيد آل خليفة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2010.
6. مصطفى عبد الغني، الاتجاه القومي في الرواية، سلسلة عالم المعرفة، عدد 188، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1994.
7. مفدى زكريا، الله المقدس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغبة، الجزائر، 2007 .
8. ابن منظور، لسان العرب، مج7، تخ: عمر أحمد الحيدري، مراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2005.